

التواصل غير اللفظي في الخطب المسجدية وأثره في المتلقي

The Non-Verbal Communication in the Mosque Sermon and Its Effect on the Audience

النواري حليتيتم *

جامعة أبي بكر بلقايد (تلمسان)، الجزائر

halitimnouari2018@gmail.com

ملخص:	معلومات المقال
تحاول هذه الدراسة التطرق إلى أهمّ العلامات غير اللغوية في فنّ الخطابة المسجدية، والتي تؤدي رسالة إضافية تزيد الخطبة وضوحا وتكسيها دلالات سكنت عنها اللغة المنطوقة، فكانت الغاية البحثية تستهدف جملة الإمكانيات التي يمكن للخطيب من خلالها أن يستفيد من مختلف أنواع العلوم، تلك العلامات التي تقترن عادة بموضوع الخطبة وهدف الخطيب، وهي ما يُميز في الغالب بين خطيب وآخر على حسب انتباهه لها، وكذا حسن توظيفها في خطبته، ومثالها علامات الوجه ودورها الفعّال في حياة الخطبة، إذ أنّ كل حركة للوجه تعطي رسالة معيّنة كحركة العينين، والبسمة، والوجه الضاحك والوجه المتهكّم وغيرها.	تاريخ الإرسال: 2021/06/26 تاريخ القبول: 2021/10/02
	الكلمات المفتاحية: ✓ الإشارة غير لفظية: ✓ المسجد: ✓ الخطبة: ✓ علامة الوجه
Abstract :	Article info
The study seeks to deal with the non-linguistic signs in the mosque's oratory art. These signs perform supplementary function that contributes to the sermon's clarity on the one hand and offers it significances that language itself seems to elide. Hence, the present research aspires to shed light on the set of capacities that enables the orator to benefit from manifold sciences with a special focus on these signs that are usually connected with the sermon's subject and the orator's purpose. In a sense, the signs may distinguish one orator from another one inasmuch as he is aware of them.	Received 26/06/2021 Accepted 02/10/2021
	Keywords: ✓ non-verbal signs. ✓ the mosque's oratory. ✓ Sermon. ✓ facial expression

مقدمة:

ممّا لا شك فيه أنّ الخطب تتفاوت فيما بينها ، والأساليب تختلف من خطيب إلى آخر ، ومردّد ذلك إلى الوسائل والطرق التي يتبعها كل خطيب ، والتي يمكن من خلالها أن يُحسّن من أدائه ، ويُطوّر في تقديم خطبته ، ويخرج من النمطيّة والتقليد المعتادين إلى أفق الإبداع والتألق .

ومن هنا كان منطلق هذه المقالة ، فالعلوم قد بلغت شأواً كبيراً من التطوّر وتداخلت فيما بينها ، وخدم بعضها بعضاً، فكان لزاماً على الخطابة أن تنهل من هذا المعين وتستفيد من التطوّر العلميّ في جميع المجالات، كعلم السيميولوجيا مثلاً الذي يهتم بدراسة الإشارات اللغويّة وغير اللغويّة ، وهو لبّ ما تحتاجه الخطبة فجاء عنوان هذه المقالة (التواصل غير اللفظي في الخطب المسجديّة وأثره في المتلقّي) وأقصد بها لغة الجسد ، التي تعطي للكلام وضوحاً ودلالات إضافية سكّنت عنها اللغة المنطوقة، فحركة الوجه أو حركة اليدين أثناء الإلقاء تُخرج المنطوق من رتابته ، وتُكسبه دلالات إضافية ، فيكون بذلك أوقع في النفوس، وأبلغ في الأداء .

لقد أثبت علماء النفس أثبتوا أنّ لحركة الجسد لغة قائمة بذاتها، وأعطوا لكلّ حركة مدلولها من خلال ما تُحدثه من وقع ، وما تُخلّفه من انطباع لدى المتلقّي : " إنّ استخدام لغة الجسد بين الملقّي وجمهور المستمعين قناة اتّصال خطيرة، وهي بلا شك جزء مكملّ لعملية الإلقاء ، وتحتاج إلى جهد كبير لتنميتها وتطويرها باعتبارها تمثل حوالي 60% من وسائل اتصال الملقّي، وجمهور المستمعين 30% والكلمات 10% فقط "1 وقد حاولت الإجابة عن سؤالين رئيسيين : أولاً : ما هي اللغة الثّانية غير المنطوقة والتي يمكنها إعطاء دلالات إضافية للخطبة ؟ ثانياً : من خلال النماذج التي اخترتها هل يمكن للخطابة السير قدماً والاستفادة من مختلف العلوم ؟

1. أنواع العلامة :

التواصل في الغالب يكون عن طريق اللسان ، ولكنّه أحياناً يكون غير ذلك ، فيتمّ عن طريق استعمال مجموعة من الأنساق الرمزيّة، والتي تُعرف بالأمارات وهي على ثلاثة أنواع : " الأمارات العفويّة، والأمارات المغلوطة، والأمارات القصديّة"2 .

أ. الأمارات العفويّة : وهي التي تتكوّن من الوقائع التي تمدّنا بالإشارات، دون أن تكون هذه الوقائع قد أُنتجت لهذا الغرض وإنّما جاءت هكذا عفويّة، مثل لون السّماء الذي يعلم الصيّاد بحالة البحر يوم الغد .
ب. الأمارات العفويّة المغلوطة : ومثالها اللّكنة التي ينتحلها متكلّم ما راغب في إيهامنا أنّه أجني .
ج. الأمارات القصديّة : ويتعلّق الأمر بالوقائع التي تُوفّر إشارات أُنتجت قصداً للدلالة على شيء معيّن ، مثال علامات المرور .

التصنيف التقليدي للعلامات :

تنقسم العلامات وفق التصنيف التقليدي إلى الآتي : " إراديّة / ولا إراديّة، وعلامات طبيعيّة / وصناعيّة "3 :

. إراديّة / لا إراديّة :

العلامات الإراديّة : هي التي تصدر عن الإنسان قصداً وهي نوعان : " اتصاليّة بحثة ، واتّصاليّة جماليّة "4 :

- أ . اتصالية بحتة : وهي التي يراد منها نقل المعلومات فقط ، مثل إشارات الرتب العسكرية وإشارات المرور ، وأجراس الحريق والكوارث ، وأبواق السيارات ، وصفارات العسس ...
- ب . اتصالية جمالية : تستخدم لنقل الأفكار في أشكال جمالية كالصور الفنية، والتماثيل ، والتماثيل الصامت، والمقطوعات الموسيقية إلخ .
- العلامات اللاإرادية : وهي التي تصدر عن الإنسان بغير قصد ولا يتحكم فيها ، وهي أنواع :
- صوتية : كالسعال والبكاء والشخير والعطاس .
- حركية : كجريان الدم في العروق ، وحركة المعدة والقلب ، وحركة كريات الدم وغيرها .
- شكلية : كحمرة الخجل ، وتجهّم الوجه ، وأسارير البشرة على الوجه ، وتغيّر لون الشعر لتقدم السن⁵ .
- العلامات الطبيعية / الصناعية :
- العلامات الطبيعية : وهي الإشارات التي تُنتجها الطبيعة ، وهي أنواع :
- صوتية : هزيز الريح وهزيم الرعد وخرير الماء وحفيف الشجر .
- حركية : كحركة الأشجار الدالة على الرياح وحركة الموج الدالة على حالة البحر
- شكلية : كأشكال النجوم الدالة على الأنواء والوقت وأشكال القمر الدالة على التقويم الهجري ...
- شمية : كرائحة الزهور والنبات وروائح الحشرات والحيوانات ...
- ذوقية : كطعم الفواكه والحلو والحمضيات والتفاح والبطيخ ...
- حسية : كمعرفة الفواكه ، وجذور الشجر ، والصخور وغير ذلك من الأشياء عن طريق لمسها في الظلام أو عدم الرؤية .
- العلامات الصناعية التي من صنع الإنسان :
- صوتية : مثل أصوات أجراس الحريق وصقارة الإنذار وأبواق السيارات وغيرها ...
- حركية : حركة عقارب الساعة ، حركات مؤشرات المقاييس للأوزان ، وحركة مقياس سرعة الرياح .
- شكلية : كالألوان الضوئية التي تصدرها الأجهزة والتي تدلّ على عملها أو حالاتها ، وسرعتها .
- شمية : كروائح العطور ، والمبيدات والسموم والأدخنة الصناعية والغازات .
- ذوقية : كطعم الطعام المطهي والحلوى والبوضة، والمرطبات الغازية .
- لمسية : كمعرفة الأشياء المصنوعة من خلال اللمس⁶ .
- ب . التصنيف الجديد للعلامة :

إنّ أشهر تصنيف للعلامة هو الذي قام به العالم الأمريكي بورس (Charles Sanders Peirce) " لقد ميز بورس مؤسس السيميوطيقا الحديثة ثلاثة أنواع من العلامة (الأيقونة والمؤشر والرمز) " ⁷ .

ولقد أضافت المدرسة الفرنسية الإشارة حيث فرقت بين المؤشر والإشارة⁸ .

سأتحدّث عن هذه العلامات إجمالاً محاولاً التوفيق بين المدرستين الأمريكية والفرنسية :

للتواصل محوران أساسيان ، هما التواصل والعلامة ، والتواصل ينقسم أيضاً إلى قسمين لساني وغير لساني، أمّا الأوّل فيتمّ عبر واسطة الفعل الكلامي وأمّا الثاني ما يطلق عليه بويسناس f.buyssens (لغات غير اللغات

المعتادة)، ويُقسّمه إلى معايير ثلاثة " معيار الإشاريّة الدّسقيّة ويتجلّى عندما تكون العلامات ثابتة كعلامات السّير، والمعيار الثّاني هو معيار الإشاريّة اللّانسقيّة وهي عكس الأولى ؛ أي حين تكون العلامة متغيّرة كالمصقات الدّعائيّة، ثمّ يأتي المعيار الثّالث . وهو معيار الإشاريّة التي لمعنى مؤشّرها علاقة جوهريّة بشكلها . " ⁹ .

أمّا محور العلامة فينقسم إلى أربعة أقسام : " الإشارة والمؤشّر والرّمز والأيقون " ¹⁰ :
الإشارة : والذي يُميّزها عن القرينة أنّ لها خاصيّة نيّة التبليغ فوظيفتها الأساسيّة الدّلالة على الشّيء ، فالعلم الأحمر الذي يوضع على الشّواطئ إشارة إلى حالة الطّقس المتوتّرة ، وقد وُضعت للدّلالة على ذلك ، " وهي أنواع : كحمرّة الأصيل ، والإرهاصات المُنبئة بالثّورة وأعراض المرض ، والبصمات ، والآثار الدّالة على الحضور ، وأهمّ ما يُميّز الإشارة هو كونها مُدرّكة ظاهرة ، وهي رهن إشارة الإنسان الذي يملك حقّ تعريفها وشرحها كما يريد ، ونفهم من هذه المواصفات التي يعطونها للإشارة أنّهم يقصدون بها الأمارات غير القصديّة " ¹¹ .

إذا فالإشارة ترتبط طبيعيّاً بما تُحيلُ إليه بعلاقة الملازمة ، ولكن في غياب ما تشير إليه أو تلازمه وإلا بطل مفعولها .

المؤشّر : وهو عبارة عن إشارة اصطناعيّة ، لا قيمة له إلّا في حضور المتلقّي له ، ويُعرّف أيضاً بالقرينة وفيه تقوم العلاقة بين الدّال والمدلول أو بين العلامة والواقع الخارجيّ على مبدأ التّجاوز . والمؤشّر يتحدّد بموضوعه الدّاتي أو ديناميّته الخاصّة بفضل كونه في علاقة حقيقيّة معه عن طريق إقامة علاقة سببيّة بين واقعة لغويّة أو حدث لغوي ، وبين شيء تدلّ عليه هذه الواقعة وقد عرّفه بريبطو (prieto) : " إنّ العلامة التي بمثابة إشارة اصطناعيّة ، هذا المؤشّر وهو يُفصح عن فعل معنى لا يؤدّي المهمّة المنوطة به ، إلّا حيث يوجد المتلقّي له " ¹² .

غالبا ما تتداخل المؤشّرات مع القرائن لأنّ هناك خيطا رفيعا يفصل بينها ، ويُحدّد ذلك العلاقة بين الدّال والمدلول هل هي اعتباطيّة أم هي علاقة دلّت عليها القرائن المصاحبة " كثيرا ما تتداخل القرائن مع المؤشّرات على الرّغم من أنّ المؤشّرات علامات اعتباطيّة وأنّ القرائن تكون تعليليّة إنّ هي اندمجت في إطار العلامات الطبيعيّة ، حيث هناك علاقة سببيّة بين الدّال والمدلول " ¹³ .

الرّمز : الذي يعني في الأصل العلامة ومنه العلامة اللغويّة ، وهي علامة اعتباطيّة لأنّ العلاقة فيها بين الدّال والمدلول غير معلّلة أي اصطلاحيّة ، بمعنى أنّ فهمها يتطلّب معرفة مُسبّقة ، " وهو عند موريس علامة العلامة أي العلامة التي تُنتج قصد النّياحة عن علامة أخرى مرادفة لها ومعنى ذلك أنّ العلامة اللغويّة يصير لها مدلولاً آخر كالسّلحفاة رمز للبطء " ¹⁴ .

ويختلف الرّمز عن العلامة بأنّ الثّانية لها الصّفة الاعتباطيّة ، أمّا الرّمز له الصّفة التّعليليّة (عند دو سوسير) وبالتالي فالرّمز إشارة اتّصاليّة تقوم على ركائز طبيعيّة ، مثل الدّخان الذي يعني وجود النّار ، أما عند شارل بورس : " الرّمز هو المعادل الحقيقي للعلامة عند دو سوسير إذ يرى أنّ علاقة الرّمز بمدلوله هي علاقة اعتباطيّة عرفيّة فقط " ¹⁵ . فالعلامة الرّمزية هي التي تفيد مدلولها بناء على اصطلاح بين جماعة من النّاس كالحمامة البيضاء التي تحمل غصن زيتون يدل على السّلام .

الأيقون :

إنّ الأيقونة هي تلك العلامة الدالة على موضوعها عن طريق المشابهة ؛ سواء كانت المشابهة بواسطة الرسم أو المحاكاة، إنها علامة تحتوي على خصيصة تجعلها دلالة ، رغم أنّ موضوعها غير موجود مثل أثر القلم الذي يمثله المثلث " وهي علامة تدل على شيء تجمعه إلى شيء آخر علاقة المماثلة ، إذ يتعرّف على الأنموذج الذي جعل الأيقون مقابلاً به " 16 .

أي يحيل إلى ما يدلّ عليه عن طريق المشابهة والمماثلة، ولقد حضى موضوع الأيقونة بالحضّ الأوفر في الدراسات السيميولوجية الحديثة ، فهي الأكثر استعمالاً من بين العلامات التي ذُكرت، فدرجة التشابه بين الدال والمدلول تسمّى أيقونة، فهي تحيل إلى الشيء الذي تدلّ عليه بفضل سمات خاصّة تمتلكها فقد يكون أيّ شيء أيقونة لشيء آخر ، بمجرد أن يشبهه ويستخدم دليلاً له " وعليه فالأيقونات علامات يتحقق وجودها بالفعل ، وتنشأ بينها وبين موضوعها علاقة مشابهة حسّية ، وهنا يكون بورس قد تحرّر في تصوّره الأيقوني من فلسفة التّعالّي الكانطيّة ، وخرج من التجريد المنطقي للعلامة " 17 .

ومن الأمثلة التي تساق في مجال الأيقونات : الصّور الفوتوغرافيّة والمخطّطات المعماريّة والخرائط الجغرافيّة والضجيج الاصطناعي في السّنما والمسرح والرّسوم البيانيّة والاستعارات إلخ ، " تكون الاستعارة البلاغيّة تشبيهاً أيقونيّاً ، في المثال الذي ضربّه بورس: الفتاة التي لا ترقص في الحفلات هي زهرة حائط حقيقيّة ، تمثّل وجه الشّبه بين المشبّه . أي الدال الفتاة التي لا ترقص في الحفلات . والمشبّه به . المدلول أي زهرة الحائط . في السّمة الدلاليّة الآتية : الالتصاق بالحائط " 18 .

نماذج عن العلامة في الخطبة (الإشارة) :

إنّ في الخطبة عدد كبير من الإشارات والتي تشكّل بحد ذاتها حقلاً دلاليّاً إضافيّاً ، وتُعطي للخطبة أبعاداً جماليّة جديدة سكّنت عنها لغة العبارة ، وقد اخترت منها نوعين هما (علامات الوجه واليد) :

أ. الوجه : إنّ للوجه علامات ودلالات توحى بما في نفس صاحبه ، فمعالم الوجه السّعيد تختلف تماماً عنها في الوجه الحزين، والوجه المُعجّب في تعابيره لا يشبه الوجه المُتهكّم، بل إنّ القوز يوم القيامة له أثره الواضح في الوجه : قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ 19 ، وقال تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ 20 .

ولقد كان صحابة رسول الله . صلى الله عليه وسلم . يعرفون ما يحبه وما يكرهه . عليه الصلاة والسلام . من علامات وجهه عن أبي سعيد الخدري . رضي الله عنه . قال : " كان رسول الله . صلى الله عليه وسلم . أشدّ حياءً من العذراء في خدرها ، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه " 21 ، وعن أبي هريرة وأبي سعيد . رضي الله عنهما . قالوا : " خطبنا رسول الله . صلى الله عليه وسلم . فقال : والذي نفسي بيده ثلاث مرّات ، ثمّ أكبّ ، فأكبّ كل رجل منّا يبكي لا يدري على ماذا حلف ؟ ثمّ رفع رأسه ، فرأينا في وجهه البشري ، فكانت أحبّ إلينا من حُمر النّعم " 22 ، وعن جابر بن عبد الله . رضي الله عنه . قال : كنّا في صدر النّهار عند رسول الله . صلى الله عليه وسلم . فجاءه قوم عراة مُجْتَائِي التّمار . مشقوقي الملابس . عامّتهم من مضر فتمعّروا رسول الله . صلى الله عليه وسلم . لما رأى ما

بهم من الفاقة قال : فجاءه رجل من الأنصار بصُرة كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس ، حتى رأيت كومين من طعام وثياب ... حتى رأيت وجه رسول الله . صلى الله عليه وسلم . يتהלّل كأنه مذهبة ... " ²³ .

من هنا تكمن أهميّة الوجه في الدلالة على الرضى والقبول أحيانا ، وعلى الغضب والمنع أحيانا آخر ، فقد وصفت عائشة رسول الله . صلى الله عليه وسلم . : " إذا سُرّاستنار وجهه كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف منه ذلك " ²⁴ ، ولما قال المقداد كلمته التي قال قبيل غزوة بدر ، يقول واصفه : فرأيت النبي . صلى الله عليه وسلم . أشرق وجهه " ²⁵ .

وإذا كره النبي . عليه الصلّاة والسّلام . شيئا عُرِفَ ذلك في وجهه أيضا ، فيكون الدّافع للتّرك دون حتى أن يتكلّم . عليه الصلّاة والسّلام . ، ومن ذلك اعتراض رجلٍ على قسمة رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وقال : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فغضب رسول الله . عليه الصلّاة والسّلام . حتى رُئي الغضب في وجهه " ومنه أيضا أنّه رأى نُمرقة فيها تصاوير عند عائشة فلمّا رآها أقام ولم يدخل تقول عائشة : " فعرفت في وجهه الكراهية ، فكان هذا الموقف سببا في إعلان ندمها وتوبتها حتى قالت : يا رسول الله ، أتوب إلى الله وإلى رسوله " ²⁶ .

ولذلك وجب على الخطيب أن ينتبه إلى معالم وجهه ، وأن يُحسّن توظيفها أثناء عملية الإلقاء ، فحركة العين لها دلالة ، وقطبُ الجبين له دلالة ، والبسمة لوحدها لها دلالات ، وإذا أحسن المرء استعمالها قطع مشوارا طويلا في طريق النّجاح ، ولا بأس أن أتحدّث عن أهميّة البسمة أثناء الكلام : " للتبسّم دلالات متباينة ، وأحوال متعدّدة فمنه تَبَسُّمُ المُعْجَب وتَبَسُّمُ المُسْتَهْزِئ ، وتَبَسُّمُ المُسْرور ، وتَبَسُّمُ المُتَكَبِّر ، والحق أنّ ذلك كلّه يدرك بالمعاينة والتّبصّر " ²⁷ ، والتّبسّم دال أيضا على التمكن ، وقوّة الشخصية ، وقدرة التملّك ، وعلى الحُبّ والسّلام الذي يحمله الخطيب لشرف المهنة أولا وللمستمع ثانيا ، والبسمة تخلق جوّا من الرّاحة والأنس والاطمئنان ، ونوعا من المودّة والاحترام المتبادل ، " يروي داييل كارنيجي أنّه كتب قصّة حياة مصرفيّ من نيويورك لمجلّة أمريكيّان ، فسأل داييل كارنيجي أحد أصدقاء المصرفيّ عن سبب نجاحه ، فوضّح له أنّ السبب الرئيس يعود إلى ابتسامة الرجل الساحرة " ²⁸ ، وربما يظهر بداية أنّ في الأمر شيء من المبالغة ، ولكنّها حقيقة يَغفَل عنها كثير من النّاس ، بل إنّ التّجارة الحديثة تبني أصولها على مثل هذا النّوع من المعاملة ، إنّ هذه الابتسامة تعطي الثقة وتكسب الأنس والرّضا ، تقول حكمة صينية : " من لا يستطيع الابتسام ، يجب أن لا يفتح متجرا " ²⁹ .

ب . اليد : إنّ من الصور المدهشة ، والمناظر المؤثّرة ، والمشاهد الرّاسخة التي تستوقفك كثيرا وأنت داخل إلى مدينة المسيلة ، مربّع الشهداء يتوسطه تمثال الرئيس الراحل محمد بوضياف وهو مادّ يده ، وهي الصورة نفسها التي مات عليها على منصّة الشّرف ، هذا المشهد الذي يوحى إلى رسالة السّلام التي كان يحاول تجسيدها ، والتي قدّم نفسه فداءً لها ، فكانت هذه الحركة على الرّغم من أنّ الذي يحملها صنم فيها من الدلالات ما فيها ، إنّ الجنين ساعة يخرج إلى هذه الحياة يولد وهو قابض على يديه ، وكأنّه يقول لنا لا تخافوا فقد ولدت وأنا قابض على رزقي ، والميّت حين يفارق الحياة يخرج منها وهو باسط كفيه ، وكأنّه يقول لقد انتهى رزقي في هذه الدنيا ، إنّ لليد لغة قائمة بذاتها ، وهناك إشارات وعلامات تعارف عليها النّاس ، وجب على الخطيب الاستعانة بها ، والحذر من بعضها ، ولقد كان النبي . صلى الله عليه وسلم . يستعمل لغة اليد أحيانا ، ويستعين بها لتمام المعنى وبقاء أثره ، ومثاله :

عن ابن مسعود أنه قال : " إنَّ المؤمن يرى ذنوبه كأنَّه قاعد تحت جبل ، يخاف أن يقع عليه ، وإنَّ الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه فقال به هكذا ، قال أبو شهاب : بيده فوق أنفه " ³⁰.

فهذه الحركة زادت المعنى وضوحا ، ورسوخا في نفوس سامعيه ، بل قد اكتفى النبي - صَلَّى الله عليه وسلَّم - بلغة الإشارة لبيان المراد وتبليغ المقصد ، واعتبرها قولاً تاماً فقال به هكذا ...

قوله - صَلَّى الله عليه وسلَّم - : " التَّقْوَى ها هنا ويشير إلى صدره " ³¹.

حديث معاذ بن جبل - رضي الله عنه - : " أمسك عليك هذا وأشار إلى لسانه ، فقال : يا رسول الله أنؤاخذُ بما نقول ، قال - صَلَّى الله عليه وسلَّم - : ثكلتك أمك وهل يكُبُّ النَّاسَ على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم " ³².

وقوله - صَلَّى الله عليه وسلَّم - : " ويل للعرب من شرَّ قد اقترب ، فُتِحَ اليوم من ردم يأجوج ومأجوج بقدر كذا ، وعقد التَّسعين (أي جعل رأس السَّبَّابة في أصل الإبهام ، مُشَكِّلا دائرة صغيرة) " ³³.

ففي هذه الأمثلة كانت الإشارة كفييلة بتوصيل المعنى ، والأصلح لبيان المقال ، والأنسب للسان الحال ، فما أجمل أن يزواج الإنسان بين لغة اللسان ولغة الجسد ، حتَّى يكون لحديثه أبلغ الأثر ، وأجمل الوقع فحركة اليد أحيانا تقوم مقام الكلام : كإشارتك لشخص يتحدث ببطن الكف (يعني اسكت) وقد تزواج بين الإشارة والكلام فتقوم بنفس الحركة مع قول اسكت ، فتكون الإشارة مساعدة على تبليغ الرسالة .

ومن الإشارات الشائعة " وضع اليد على الذقن ، وحك الرأس قليلا والضرب على الرأس ، واحمرار الوجه ... " ³⁴

وكل إشارة تدل على معنى كما أثبت ذلك علماء النفس ومن ذلك الآتي :

وضع اليد على الذقن : هذه الإشارة توجي إلى التفكير العميق وترتيب الكلام قبل النطق به وعادة ما تلاحظ هذا التصرف عند رجال السياسة وأصحاب المناصب عندما يُسألون .

حكَّ الرأس قليلا : إذا صدرت من المستمع خاصَّة إذا كان ذلك مصحوبا بتغير طفيف في حركة الوجه فهي تدل على عدم الاتفاق مع الملقى في الفكرة .

الضَّرب على الرأس : يدل على التَّدم ، أو الخسارة ، أو الفشل وعادة ما يكون هذا التَّصرف إذا قُوبل الإنسان بخبر لا يحبَّ سماعه .

وضع القبضتين على الوجنتين : تدلّ على التَّفكير ، والتَّأمل ومراجعة الدَّات وتعني أيضا أنَّ صاحبها في عالم آخر ، وعادة ما تكون في وسط هادئ خال من الفوضى .

احمرار الوجه : على الغضب إذا كان في الوجه تهكُّم وانقباض وعلى الحياء إذا صاحبه بسمة خفيفة عليه .

الدَّراع المثبت بقوة : أي مسك أحد الذراعين باليد الأخرى والضَّغط عليها بقوة ، يدل على التوتر وجاهزية العدوانية وعلى العصبية والاستعداد لردِّ الفعل .

تماسك الأيدي والأذرع إلى الخلف : (اليدان خلف الظهر ، تمسك إحداها الأخرى) حركة الفوقية والثَّقة بالنفس ، يستعملها من أراد الظهور بمظهر الأهمية ، وإذا تم الضَّغط على اليد بدل الاسترخاء ، فإنَّ ذلك يدل على الغيظ وعدم التمكن من المحافظة على الهدوء .

. الملل : يسند رأسه ضجرا بقدر ما يمل ، يثقل رأسه أكثر ، لقياس الضجر تعد الأصابع والأيدي التي تسند الرأس ، أثناء الضجر العميق يستند الرأس بأكمله على اليد ، تصدر عنا أحيانا علامات الضجر مثل النقر على الطاولة ضرب القدم بالأرض .

تجليات الأيقونة في الخطبة :

تعدّ الأيقونة من أهمّ دراسات السيميولوجيا فالأيقونة " هي حصيلة مجموعة من الإجراءات الخطابية التي تستند إلى التّصور الذي تتبنّاه ثقافة ما من أجل تقطيع الواقع " ³⁵ ، فهي صورة دالّة على صاحبها ومرتبطة به في علاقة يقول عنها سعيد بنكراد " إنّ ما تدركه العيون هو علامات لا موضوعات معزولة ، والعالم تسكنه العلامات وليس خزّانا للأشياء ، إنّ العلامة الأيقونية لا تدلّ على معنى من تلقاء ذاتها فالمعنى داخلها يستدعي استحضار التجربة الثقافية كشرط أوّلٍ بيّن للإمساك بممكنات التّديل " ³⁶ ، وقد اخترت لهذا الغرض نوعين من الأيقونات التي تتجلّى معالمها في الخطبة هما (المظهر العام والعصا) :

أ . **المظهر العام** : إنّ الخطيب محلّ نظر النّاس ، فالعيون إليه شاخصة ، والأبصار به متصلة ، لذا وجب أن تكون له عناية خاصة بمظهره واختيار مناسب للملابسه ، قال الفيلسوف سيروس (syarus) في عام (42 ق. م) : " المظهر الجميل هو توصية صامته " ³⁷ فللملابس تأثير خاص على الشخص بحدّ ذاته وعلى المستمع بالدرجة الثانية ، " لقد أرسل عالم نفسي ورئيس جامعة سؤالا إلى مجموعة كبيرة من النّاس ، عن التأثير التي تتركه الملابس في أنفسهم فأجمع كلّ الأفراد أنّهم عندما يكونون بمظهر لائق وأنيق ويتأكدون من ذلك يشعرون بتأثيره " ³⁸.

وإذا كان هذا تأثير اللباس على الملقّي فكيف يكون تأثيره على المتلقّي ويُسْتَحَب في المناسبات العادية لبس ما يلائم من الثياب وما تميل إليه الطباع ويوافق لون البشرة مع كونه ساترا للعورة ، غير ضيق ولا فاضح ، ويستحبّ يوم الجمعة وأثناء الدّرس لبس البياض من الثياب ، فقد جاء بفضلها الأثر وتوالت بتقديمها الشّواهد والبيّنات، منها :

. عن ابن عبّاس . رضي الله عنهما . ، قال : قال رسول الله . صلّى الله عليه وسلّم . : " البسوا من ثيابكم البياض فإنّها من خير ثيابكم وكفّنوا فيها موتاكم " ³⁹ .

وعن أبي ذرّ . رضي الله عنه . قال : " رأيت رسول الله . صلّى الله عليه وسلّم . يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه ، عليهما ثياب بيض ، كأشدّ القتال ما رأيتهما من قبل ولا بعد " ⁴⁰ ، والمقصود أنّهما ملكان نزلا من السماء يلبسان البياض من الثياب ، دلالة على حُسْنِ اللّون وقيمته ، وجماله وفضله " اللون الأبيض رمز الطّهارة والنّقاء والصّدق " ⁴¹ ، فالطفّل يولد صفحة بيضاء ، والقلب الطّاهر يسوّى قلبا أبيضاً ، ورمز السّلام حمالة بيضاء ، وعلامة العفّة اليد البيضاء .

والثوب الأبيض يزيد صاحبه إشراقا ، ويُضفي عليه أناقة وجمالا " فقد قالوا : كلام أبيض وقالوا : يد بيضاء واستخدموا البياض للمدح بالكرم ، ونقاء العرض من العيوب " ⁴² ، وأغلب النّاس يفضّلون اللّون الأبيض ، فأجمل السيّارات البيضاء والعروس تلبس عباءة بيضاء ، حيث أنّ اللّون الأبيض يُسمّى في إحداث حالة خاصّة من النّقاء والإحساس الملائكي ، وهو غالبا ما يربط بالفرح والحُبّ والسّلام والوضوح ، ويوحى بمعنى تطمئن له النّفس ، ويحسّ لابسّه وناظره بالصّفاء والسّكينة ، ويبعث على التفاؤل والسّرور ، ولون الثلج الأبيض يجعله محبوبا لدى النّاس ،

ولذلك فاللون الأبيض يوحى بالبرودة ، وهو أيضا يعكس أشعة الشمس والملاحظ أنّ أغلب لباس أهل الحجاز القميص الأبيض لأنّ هذه المناطق ساخنة جدًا .

كما أنّ العلم الحديث أثبت تأثير اللون الأبيض على الأشخاص " يمكن استخدام هذا اللون لعلاج مرض الصفراء وخاصة للمصابين بها من الأطفال حديثي الولادة ، وكذا ينصح الأطباء مرضى الدرن الرئوي بالترّيش في ضوء الشمس القويّ ، وارتداء ملابس بيضاء " ⁴³ ، وقد توسع العرب في دلالة اللون الأبيض " فأطلقوه على الإشراق والإضاءة ، فسَمّوا به ليالي الثالث عشر والرّابع عشر والخامس عشر. من كل شهر قمري . ، ووصفوا به الأرض إذا كانت ملساء لا نبت فيها كما استخدموا البياض للمدح بالكرم ، ونقاء العرض ، واستخدموا بياض الوجه للإشارة إلى نقائه وصفائه وإشراقه " ⁴⁴ .

أما في المناسبات الأخرى ، فيجب أن يكون اللون ملائما لها : " يختار الملابس التي تنسجم ألوانها ، أي ينسجم لون القميص مع البنطلون ، مع الجاكت ، مع لون الجورب وذلك حتى لا يظهر أمام الجمهور وهو يرتدي ملابس تشكل تشتيئا برّاقا لهم أثناء الإلقاء " ⁴⁵ مع الحرص أن تكون الثياب نظيفة ، والبدن نظيفا ، فيهدب لحيته ويُرَجِّل شعره ويُطَيِّب رائحته ، فقد كان هذا دأبه . صلّى الله عليه وسلّم . : (دخل رجل على رسول الله . عليه الصّلاة والسّلام . نائر الرّأس واللّحية فأشار . صلّى الله عليه وسلّم . بيده كأنه يأمره بإصلاح شعره ولحيته ، ففعل ثمّ رجع ، فقال . رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . : أليس هذا خيرا من أن يأتي أحدكم وهو نائر الرّأس كأنه شيطان) ⁴⁶ .

ب . العصا :

وهي ما يحمله الخطيب يوم الجمعة خاصّة في شمال إفريقيا الذين اختاروا مذهب الإمام مالك وانتصروا للعصا وعدّوها من لوازم خطبة الجمعة " العصا العُودُ أنثى وفي التنزيل العزيز: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ ⁴⁷ ، وفلانٌ صُلْبُ العَصَا وصليبُ العَصَا إذا كان يَعْنُفُ بالإبل فيضربُها بالعَصَا " ⁴⁸ .

لا شك أنّ العصا لها دلالتها التاريخية ، فهي مرتبطة بالعربي حتّى ما قبل الإسلام ، وفي مسكها أثناء الجمعة تذكير للعربي بأصوله التاريخية العميقة ، كما أنّها تدلّ على الحكمة وبُعد النّظر ، وعلى الكبر والسّن الذي يجب أن يُحترم ، فإذا ذكروا لك عالما أو حكيما فإنّ أول صورة تتشكّل عندك : شيخ كبير عليه جُبّة وعمامته يحمل عصا ، بل كان من عادة الملوك والأمراء حمل العصا ، فهي مظهر من مظاهر الواجهة الاجتماعية ، وعادة من عادات الطبقة الأرستقراطية ، ولقد خصّص الجاحظ في رده على الشعوبية * بابا كبيرا يتحدّث فيه عن فضل العصا .

يقول الجاحظ : " والدليل على أنّ أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم ومعدن شريف ومن المواضع التي لا يعيها إلا جاهل ، ولا يعترض عليها إلا معاند ، اتّخاذ سليمان بن داود عليهما السّلام العصا لخطبته وموعظته ، ومقاماته ، وطول صلاته ، ولطول التّلاوة الانتصاب ، فجعلها لتلك الخصال جامعة ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ ⁴⁹ " ⁵⁰ .

لقد علّل الجاحظ بداية رده بذكر سليمان عليه السّلام ، لأنّه من العَجَم وطباعهم تكون أميل إليه ، وكأنّه يقول لهم : إذا كنتم تعيبن على العرب استعمال العصا فيها هو نبيّكم الذي هو خيركم ، كان يستعمل العصا ، في

أفضل المقامات ، وفي أقدس البقع والأماكن ، ثم يذكر الجاحظ بعد ذلك موسى عليه السلام ، وما جمع له في عصاه من مجامع الخير ، قال تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشْفَى بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ أُخْرَى ﴾⁵¹.

فبعد أن ذكر موسى هذه الخصال التي تكمن في عصاه ، زاده الله تشريفا لها ، وأعطاه من الآيات البيّنات ومن المعجزات الواضحات ، ما عليه آمن ملكة السّحري في ذلك الزّمان فهي التي أهلك ما يأفكون ، والتهمت ما كانوا يصنعون قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصَمَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾⁵² ، وفتح له بها طريقا في البحر وأسقاه بها وقومه من العطش ، ثم ذكر الجاحظ بعد ذلك فضل الشجر الذي هو أصل العصا ، وعرج على أشعار العرب وبعض القصص التي تتحدث عن مناقب العصا .

ذكر القرطبي في تفسيره جملة من النصوص تتحدث عن فضل العصا : " تعرّض قوم لتعديد منافع العصا منهم ابن عباس ، قال : إذا انتهيت إلى رأس بئر فقصر الرشا وصلته بالعصا ، وإذا أصابني حرّ الشمس غرستها في الأرض وألقيت عليها ما يظّلني ، وإذا خفت شيئا من هوام الأرض قتلتها بها ، وإذا مشيت ألقىتها على عاتقي وعلقت عليها القوس والكنانة والمخلّة ، وأقاتل بها السباع عن الغنم .

وروى عنه ميمون بن مهران قال : إمساك العصا سنّة للأنبياء وعلامة للمؤمن . وقال الحسن البصري : فيها ستّ خصال : سنّة للأنبياء وزينة الصّالحاء ، وسلاح على الأعداء وعون للضعفاء ، وغمّ على المنافقين وزيادة الطّاعات ويقال : إذا كان مع المؤمن العصا يهرب منه الشيطان ، ويخشع منه المنافق والفاجر ، وتكون قبلته إذا صلى وقوّته إذا أعيا ، ولقي الحجاج أعرابيا فقال : من أين أقبلت يا أعرابي ؟ قال : من البادية ، قال : وما في يدك ؟ قال : عصاي أركزها لصلاتي وأعدّها لعداتي ، وأسوق بها دابّتي ، وأقوى بها على سفري ، وأعتمد بها في مشيتي لتتسع خطوتي ، وأتّب بها النّهر ، وتؤمّنني من العثر ، وألقي عليها كسائي فيقيني الحرّ ، ويدفّني من القرّ ، وتدني إليّ ما بعد مئي ، وهي محمل سفرتي وعلاقة إداوتي ، أعصي بها عند الضّراب ، وأقرع بها الأبواب ، وأتقي بها عقور الكلاب وتنوب عن الرّمح في الطعان ؛ وعن السيّف عند منازلة الأقران ؛ ورثتها عن أبي وأورثها بعدي ابني ، وأهشّ بها على غنمي ، ولي فيها مأرب أخرى ، كثيرة لا تحصى " ⁵³ ، والحمد لله فالعصا في بلادنا من شعائر الخطبة وهي ممّا يميّز الأصالة المذهبية لدول شمال إفريقيا ، وتعلّقهم بمذهب الإمام مالك ، ولا يكاد يخلو مسجد من العصا عدا بعض المساجد التي حملت شعار المخالفة ، واتّخذت من المعارضة سبيلا لها .

ممّا سبق يثبت أنّ للعصا دلالتها التاريخية المتعلّقة بالعربي ، ودلالاتها الفقهية المرتبطة بمذهب الإمام مالك ودلالاتها القومية التي اجتمعت عليها دول المغرب العربي ، وإغفالها مجلبة لسوء الظنّ ، وخروج عن الموروث العقدي والتاريخي .

خاتمة : للخطابة دورها الفعّال وأهميتها الخطيرة في بناء المجتمعات ، خاصة في العالم الإسلامي ، فكلّ أسبوع يجتمع الملايين من النّاس للاستماع إلى خطبة الجمعة ، ولا كلمة ساعها إلا للخطيب له سلطان الشّرع ومعه سلطان القانون ، ومن هنا صار لزاما أن يُعطى لهذا النوع الأدبي أهميته وأن يُنظر في كيفية التّهوض به ، والسّير به قدما في ظلّ تطوّر العلوم وتكاتفها وقد خلص المقال إلى النتائج الآتية :

- وجوب العناية بالخطابة وضرورة التركيز على تكوين الخطيب بما يتماشى وروح العصر وحاجة الوقت .
- ضرورة الإعداد الجيد للخطبة وفق الدراسات المنهجية، ومحاولة تطوير العملية الإلقائية تبعاً للتطورات الحاصلة .
- أهمية العلوم الحديثة وضرورة الاستفادة منها بما يخدم فن الخطابة .
- أهمية التواصل غير اللفظي وبيان مدى تأثيره في المتلقي .
- الاستفادة من كل الأمور المتاحة الجديدة من أجل الخروج عن التقليد والرتابة والابتعاد عن الاستهلاك والنمطية .

المراجع :

- 1 . خالد توكال مرسي ، فن الالقاء والتحرير الكتابي ، مكتبة الآداب للطباعة والنشر ، ط 1 ، 2008 ، ص 74 .
- 2 . حنون مبارك ، دروس في السيميائيات ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، ط 1 ، 1987 ، ص 73 .
- 3 . عبيدة صبيطي ، نجيب بخوش ، مدخل إلى السيميولوجيا ، دار الخلدونية ، الجزائر ، ط 1 ، 2009 ، ص 88 .
- 4 . المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
- 5 . ينظر المرجع نفسه ، ص 90 .
- 6 . ينظر المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
- 7 . المرجع نفسه ، ص 96 .
- 8 . نقلا عن : فيصل الأحر ، معجم السيميائيات ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط 1 ، 2010 ، ص 99 .
- 9 . المرجع نفسه ، ص 88 .
- 10 . التقسيم أخذ من كتاب معجم السيميائيات لفصيل الأحمر ص 88 .
- 11 . المرجع نفسه ص 89 .
- 12 . المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
- 13 . عبيدة صبيطي . نجيب بخوش ، مدخل إلى السيميولوجيا ، ص 101 .
- 14 . فيصل الأحمر ، معجم السيميائيات ، ص 89 .
- 15 . عبيدة صبيطي ونجيب بخوش ، مدخل إلى السيميولوجيا ، ص 102 .
- 16 . فيصل الأحمر ، معجم السيميائيات ، ص 89 .
- 17 . عبيدة صبيطي ، نجيب بخوش ، مدخل إلى السيميولوجيا ، ص 97 .
- 18 . المرجع نفسه ، ص 98 .
- 19 . سورة آل عمران ، آية 106 . 107 .
- 20 . سورة عبس ، آية 38 . 42 .
- 21 . مسلم ، الجامع الصحيح ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 1991 حديث رقم 6032 ، ص 884 .
- 22 . أحمد بن شعيب النسائي ، سنن النسائي ، مؤسسة الرسالة ناشرون ، بيروت ، ط 1 ، 2014 ، ص 613 .
- 23 . مسلم . الجامع الصحيح ، حديث رقم 2351 . ص 356 .
- 24 . محمد بن اسماعيل البخاري ، صحيح البخاري ، دار صبح ، بيروت ، ط 2 ، 2002 ، ص 876 .
- 25 . المرجع نفسه ، ج 3 ، ص 160 .
- 26 . المرجع نفسه ، ج 4 ، ص 48 .
- 27 . مهدي أسعد عرار ، البيان بلا لسان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 2007 ، ص 277 .
- 28 . المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
- 29 . المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

30. البخاري ، الصحيح 1 / 107 .
31. مسلم ، الجامع الصحيح ، حيث رقم 6541 ، ص 968 .
32. نقلا عن : ابن رجب الحنبلي ، جامع العلوم والحكم ، مكتبة دار الريان ، الجزائر ، ط 2 ، 2002 ، ص 329 .
33. المرجع نفسه ، حديث رقم 2880 ، ص 1316 .
34. أمين سلطان ، لغة الجسد ، دار القروان للنشر ، القاهرة ، ط 1 ، 2013 ، ص 46 . 47 بتصرف
35. فيصل الأحمر ، معجم السيميائيات ، ص 79 .
36. المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
37. خالد توكال مرسي ، فن الإلقاء ، ص 78 .
38. المرجع نفسه . ن ص .
39. رواه أبو داود / 4061 / والترمذي / 994 / وابن ماجه / 1472 .
40. البخاري ، صحيح البخاري ، حديث رقم 4054 ، ص 996 .
41. أحمد مختار عمر ، اللغة واللون ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط 2 ، 1997 ، ص 17.75 .
42. المرجع نفسه ص 71 .
43. عبد الكريم حسن محسن ، مجلة الأقصى (جامعة العلوم الطبيعية) ، عدد 1 ، يناير 2012 ، ص 38 .
44. أحمد مختار عمر ، اللغة واللون ، ص 41 . 42 .
45. خالد توكال مرسي ، فن الإلقاء ، ص 79 .
46. مالك بن أنس ، الموطأ ، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ، الجزائر ، ط 1 ، 2015 ، ص 383 .
47. سورة طه ، آية 17 .
48. ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، بد ط ، بد ت ، م 15 ص 71 .
- * الشعوبية نزعاً ظهرت في العصر العباسي تنكر تفضيل العرب على غيرهم وتحاول الحط منهم وتفضل عليهم العجم ينظر: أحمد مختار عمر ، معجم اللغة العربية المعاصرة ، ص 204 .
49. سورة سبأ ، آية 14 .
50. الجاحظ ، البيان والتبيين 3 / 30 .
51. سورة طه ، الآية 17 .
52. سورة الشعراء ، الآية : 43 . 46 .
53. القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، تح سالم مصطفى البدري ، دار الكاب العلمية ، بيروت ، بد ، 2007 ، ج 11 ، ص 126 .